إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن

جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع

بتاريخ: 21و22 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و16 نوفمبر 2022

تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي
من خلال كتاب "الشرك ومظاهره"
ـ دراسة نظرية تطبيقية واقع أهل زمانه ـ

د/ هشام شوقي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة
chougui.hicham@univ-emir.dz

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأمين وعلى آله وصحبه وأزواجه والبررة إلى يوم الدين، أما بعد:

مذ نزل القرآن الكريم والعلماء مهتمون بشرحه وبيان معانيه؛ ابتداء بإمام المفسرين وسيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، وكان القرآن الكريم بمثابة بستان يقطف من ثماره كلّ عالم ما يناسب تخصصه، فمنهم من اشتغل به من الناحية اللغوية فتجده يستخرج دررا تتعلق بالنحو والبلاغة وغيرها من علوم العربية، ومن اشتغل به من ناحية الأحكام الشرعية فقهية وعقدية فتجده يستخرج أحكام الفروع والأصول منصوصة أو مستنبطة، ومنهم اهتم به من الجانب الإصلاحي فتجده ينزّل الآيات القرآنية على الواقع الذي يعيشه في زمنه فيصف الداء ويستنبط من آيات القرآن الكريم الدواء .

ومن هؤلاء العلماء الذين سلكوا هذا المسلك الأخير الشيخ المصلح: مبارك الميلي الذي هو أحد أبرز رجالات الإصلاح في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذين سبّلوا أنفسهم في سبيل الله وإصلاح ما أفسده الاستدمار الفرنسي من عقائد وسلوكات منحرفة، وكان عمدتهم في الإصلاح كتاب الله تعالى، فكان الشيخ مبارك الميلي يسعى لبيان الدين الصحيح من خلال تصحيح المعتقدات الباطلة التي شاعت في زمنه فألّف كتابا سماه "الشرك ومظاهره"؛ كان يصف فيه أنواعا من الانحرافات العقدية والمظاهر الشركية التي انتشرت انتشارا رهيبا في زمنه ويبّن الاعتقاد الصحيح فيها، وكانت عمدته فيه آيات القرآن الكريم التي كان ينزلها على تلك المظاهر فيذكر العلاج من خلالها . ولعلّ الشيخ مبارك الميلي من أبرز من اعتنى بقضية تنزيل الآيات على الواقع، فقد جمع فيها بين التنظير لها بكلام طويل–وهذا قليل أو غير موجود عند غيره من علماء الجمعية- ثم طبّقها في دروسه الشفهية التي كانت

تلقى في رحلاته أو المكتوبة في التي دوّنها في كتبه، حيث وجد من خلالها منفذا لتنزيل الآيات المحذّرة من الشرك والمفصّلة لبعض أنواعه على بعض المظاهر التي شاعت في زمانه وهي في حقيقتها صورة ومظهر من مظاهر الإشراك بالله تعالى .

لذلك فإن أبرز مظهر لاعتناء الشيخ بهذه القضية أنه تحدث عنها من جهتين :

- **جهة التنظير**: حيث بيّن الشيخ معنى هذه القضية وذكر قواعدها وأدلتها .

- **جهة التطبيق:** حيث نزل آيات القرآن الكريم على كثير من الحوادث في زمانه لعلاقة بين الآية والواقعة .

فكثيرا ما كان الشيخ مبارك عند تنزيله للآيات على الواقع يذكر حوادث حدثت له في حياته اليومية من خلال مخالطته للناس، أو قصصا وأخبارا سمعها من غيره في مناطق أخرى فيستغل تفسيره للآيات ببيان ما تضمنته هذه الحوادث من مخالفات لما حث القرآن على الالتزام به ، وهذا أمر شد انتباهي فحاولت في هذه المداخلة جمع المادة العلمية المتعلقة بهذه المسألة عند الشيخ مبارك من الجانب التأصيلي والتطبيقي، ثم ترتيبها لتخدم مقصد الملتقى الذي نظمه –مشكورا- معهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي تحت عنوان "جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع"، و كان عنوان هذه المُداخلة "تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي من خلال كتابه "الشرك ومظاهره - دراسة نظرية تطبيقية واقع أهل زمانه - .

وسأسعى من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة **عن الإشكاليّات والتساؤلات** الآتية:

1 – كيف أصل الشيخ مبارك الميلي لمسألة "تنزيل الآيات على الواقع" ؟.

2- وما هو المنهج الذي سلكه في تنزيلاته ؟ .

3 - ما هي أهم الحوادث والأخبار التي ذكرها الشيخ مبارك ونزل عليها آيات القرآن الكريم ؟ .

هذه الإشكاليات سيجد القارئ لها جوابا في طيات هذا البحث .

أهمية البحث:

هذه المداخلة لها أهمية من جوانب متعددة؛ مجملها:

1- معرفة الجانب التأصيلي عند أحد علماء جمعية العلماء لمسألة "تنزيل الآيات على الواقع" .

2- معرفة المنهج الذي سلكه الشيخ في تنزيلاته لسلوك مسلكه في ذلك .

3- إحياء تراث علماء بلدنا المتعلق بالتفسير في غير كتب التفسير .

4- معرفة بعض الوقائع والحوادث التي كانت في زمن الشيخ وطريقة معالجته لها ليقتدي به الأجيال في ذلك .

الدّراسات السابقة:

بعد اطلاعي على البحوث التي كتبت حول الشيخ مبارك الميلي في قضية تنزيل الآيات على الواقع وجدت مذكرة ماستر بعنوان "تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي" للطالبة: مريم زياني، قسم الكتاب والسنة جامعة الأمير عبد القادر، وجاءت دراسة تناسب المرحلة التي كتبت فيها .

المنهج المتبع:

تعددت المناهج المستعملة في هذا البحث بحسب المسألة المراد تحريرها، فقد قمت باستعمال المنهج الاستقرائي: وذلك حين تتبع المواضع المتعلقة بتنزيلات الشيخ مبارك، كما استعملت المنهج التحليلي: وذلك بتحليل أقوال الشيخ في بعض المواطن .

خطة البحث:

جاءت خطة هذه الورقة البحثية متكونة من مبحثين :

المبحث الأول: تأصيل الشيخ مبارك الميلي لمسألة "تنزيل الآيات على الواقع" . وفيها ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: الرد على من قال بخصوص السبب .

المطلب الثاني: أدلة صحة تنزيل الآية على الوقائع المشابهة .

المطلب الثالث: قاعدتان مهمتان لهما علاقة مباشرة بمسألة "تنزيل الآيات على الواقع" .

المبحث الثاني: تنزيلات الشيخ مبارك الميلي للآيات من خلال واقع أهل زمانه والحياة اليومية له . وفيه خمسة مطالب هي:

المطلب الأول : منهج الشيخ مبارك الميلي في تنزيل الآيات على الواقع .

المطلب الثاني: التصرف في الكون .

المطلب الثالث: علم الغيب .

المطلب الرابع: قضية السحر.

المطلب الخامس: شرك الدعاء .

الخاتمة: وفيها أهم النتائج المتوصل إليها .

وتفصيل ذلك كله كما يلي:

المبحث الأول: تأصيل الشيخ مبارك الميلي لمسألة "تنزيل الآيات على الواقع"

استفتح الشيخ مبارك الكلام على قضية النزيل بعنوان لها فقال" تنزيل الآيات النازلة في قوم على من أشبه حالتهم اليوم" ، ثم شرع في ذكر ما يتعلق بها من جهة التنظير لها ، وقد ذكر في ذلك ثلاث مسائل جعلت كلّ واحدة منها على شكل مطلب، وبيانها كالآتي:

المطلب الأول: الرد على من قال بخصوص السبب:

حيث استفتح الشيخ تنظيره لقضية تنزيل الآيات على الواقع بالرد على من ادّعى تخصص الآيات بمن نزلت فيهم هروبا من تنزيلها عليه فقال "رأى الطرقيون ومن لفّ لفّهم أن القرآن فاضحهم وكاشف عوارهم، فتعلّلوا للتسلّل منه بعلل شتى، وما هي بنافعتهم بعدما عمت لفظة " فاقوا "، وكان من تعلّلهم تقوّلهم: إن ما جاء في قوم من المشركين وأهل الكتاب، فهو خاص بهم، لا يتناول المسلمين، وإن جاؤوا بما هو أشنع وأضل" [1] .

فهذا الرد من الشيخ مبارك على أصحاب هذا القول ليبطل دعواهم بعدم دخولهم في عموم الآيات المحذّرة من أفعالهم المشابهة لأفعال المشركين أو أشدّ منها، وهذه المسألة لهم فيها سلف ممن سبقهم وهو قول من قال " العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ " وهذا القول هو رواية عن مالك ووافقهم أبو ثور والمزني والقفال من الشافعية، ونقله الجويني عن الشافعي ولا يصح عنه، فما في الأم خلاف ذلك حيث يقول الشافعي: "ولا تصنع الأسباب شيئا إنما تصنعه الألفاظ لأن السبب قد يكون و يحدث الكلام على غير السبب" [2] .
وقد استدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

1 - أنه لو لم يكن للسبب مدخل لما نقله الراوي إذ لا فائدة فيه .

2- لو كان الخطاب الوارد على سبب ما عاماً، لجاز إخراج السبب من صورة العموم بالتخصيص، لأنه يتساوى فيه جميع أفراده، ففي آية اللعان مثلاً نزلت في عويمر العجلاني، فإنها تختص به، فإنه لو لم تختص به لجاز إخراجه كأيّ فرد من العموم .

3- تأخير بيان الحكم إلى حين وقوعه -أي على سبب خاص- دليل على اختصاصه به [3] .

وقد استدلّ الشيخ في الرد على من خصّص اللفظ بسببه بدليلين هما:

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، سنة: 1422هـ - 2001م، (ص: 81) .

[2] الأم، محمد بن إدريس الشافعي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: بدون طبعة، سنة النشر: 1410هـ/1990م، (373/5)، ونهاية السول شرح منهاج الوصول، عبد الرحيم الإسنوي، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1420هـ- 1999م، (ص: 219) .

[3] شرح مختصر الروضة، نجم الدين الطوفي، (ت: 1316هـ)، المحقق: عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1407 هـ/1987 م، (504/2) .

الدليل الأول: مسألة "مقصود البعثة وحكمة التكليف"، فالمناسب لذلك تعميم معاني القرآن على كلّ ما شابهها من حوادث وإلاّ لم تتحقّق الحكمة من الرسالة، وفي ذلك يقول" فإن الغرض من بعثة كلّ نبي هو توحيد الخلق على توحيد الخالق وإقامة دينه، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ الشورى: ١٣ " .

وحكمة التكليف هو تكميل الإنسان باتباعه شريعة الملك الديان، وليس الأمر كما يظنه بعض الجهال من أن التكليف كجزية تضرب على العبيد من الملك، ويعفى منها من توسل إليه بمنزلة وجاه، فتراهم يفخرون بكونهم من خير أمة أخرجت للناس، أو يعتزون بالاعتزاء إلى مشهور بالفضل والصلاح، من غير أن يأتمروا بينهم بمعروف، أو يتناهوا عن منكر، وقد قال تعالى ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ الملك: ٢، ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ الحجرات: ١٣ "[1] .

والدليل الثاني: هو عمل الأئمة وعدم تخصيصهم للآية بسبب نزولها حتى أصبح الأمر متواردا عندهم فكان الواجب اتباع طريقهم، وفي ذلك يقول :" وقد تصرف الأئمة في الآيات النازلة في الأمم الماضية واستنبطوا منها أحكاماً لهذه الأمة ... وكثيراً ما نجد في عبارات المفسرين أن الآية نزلت في بني إسرائيل مثلًا، وأنها متناولة من كان على مثل حالهم من هذه الأمة، مثل آية الكاتمين للعلم ولعنهم، ومثل آية: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ البقرة: ٤٤ [2] " .

وهذه الآية نزلت في بني إسرائيل عموما، وذكر الواحدي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنها: نزلت في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينهم وبينه رضاع من المسلمين: اثبت على الدين الذي أنت عليه وما يأمرك به وهذا الرجل يعنون محمدا ﷺ فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه[3] . ومن عبارات المفسرين في تعميم الآية كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي حيث قال:" وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد" [4] .

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 81) .

[2] المرجع نفسه، (ص: 82) .

[3] أسباب النزول، أبو الحسن النيسابوري (ت: 468هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م، (ص: 24)، وهذا الأثر سكت عنه الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في كتابه "العجاب في بيان الأسباب" (252/1) . وقال فيه سليم الهلالي ووسى نصر: "هو حديث كذب؛ لأنّ الكلبي وشيخه كذَّابان" ينظر: الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1425هـ، (24/1).

[4] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللّويحق، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420هـ/2000 م، (ص: 51) .

المطلب الثاني: أدلة صحة تنزيل الآية على الوقائع المشابهة :

من المسائل التأصيلية التي ذكرها الشيخ مبارك الميلي في الجانب النظري لقضية تنزيل الآيات على الواقع؛ ذكره للأدلة الشرعية الدالّة على صحة تعميم الألفاظ الواردة في الآية وتنزيلها على الوقائع المشابهة، حيث استدل بأدلة متنوعة بلغت عشرة أدلة ما بين القرآن والسنة وكلام السلف والمعقول، ومجمل ما ذكره من أدلة في ذلك كالآتي:

أولا: الأدلة من القرآن الكريم، استدل الشيخ على مشروعية تنزيل الآيات على الواقع بأربعة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

1 – قوله تعالى في وصف كتابه: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٨٥ ؛ فإن كان الذين نريد هدايتهم بالقرآن من الناس، فلم نزد على أن أوصلناهم لحقهم من كتاب ربهم .

2 - وقوله على لسان نبيه ﷺ: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ الأنعام: ١٩ ؛ فعطف على ضمير المخاطبين من المشركين من بلغه القرآن في زمنهم وبعد عصرهم .

3 – وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الأنعام: ٥١ ، والذين يخافون الحشر هم المؤمنون ومن هم مظنة الإيمان ممن لم يطبع الله على قلوبهم؛ فلم تخص الآية المشركين بالإنذار.

4 – وقوله تعالى بعد حكاية حادثة قوم لوط: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ هود: ٨٣ ؛ فسر البغوي الظالمين هنا بمشركي مكة أو ظالمي هذه الأمة[1] . والجمع بين الوجهين غير ممتنع، وعلى كلّ حال دلّت الآية على إلحاق المتأخر بالمتقدم في استحقاق عقوبته متى كان على مثل حالته .

وفسر ابن كثير الآية على التعميم[2]، فجعلها بمعنى حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» [3]، وحكي عن أبي حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط .

فالآية دلت على أن ما أصاب قوم لوط غير خاص بهم، والحديث دل على تنفيذ حكمها فيمن أشبههم، وقول أبي حنيفة دل على مراعاة صفة التنفيذ"[4] .

---

[1] معالم التنزيل في تفسير القرآن، المؤلف: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ (194/4) .

[2] ينظر: تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2، سنة: 1420هـ - 1999 م، (342/4) .

[3] رواه الترمذي في سننه، كتاب: الحدود، باب: مَا جَاءَ فِي حَدِّ اللُّوطِيِّ، رقم: 1528 .

[4] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 83) .

ثانيا: الأدلة من السنة النبوية، وذكر الشيخ في ذلك حديثين يدلان على تعميم ألفاظ القرآن و هما:

1 – حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ ؛ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا! اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ . ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ؛ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ». ثُمَّ قَالَ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٰسِقُونَ ٨١ ﴾ المائدة: ٧٨ - ٨١. ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا؛ وَاللَّهِ؛ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[1] .

وهذا الحديث صريح في تنزيل ما نزل في اليهود على المسلمين .

2 – والحديث الثاني: ما رواه الشيخان عن عائشة وابن عباس -رضي الله عنهما-؛ أنه ﷺ قال في مرض موته: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يحذر ما صنعوا "[2] .

فقد فهما أن اللعنة غير خاصة بأهل الكتابين، وأن المقصود تحذير المسلمين من فعلهم، حتى لا تشملهم لعنتهم، ومنزلتهما في العلم والدين منزلتهما . فكان الواجب أن نعتني بما نزل في غيرنا لنحفظ أنفسنا من مشابهتهم في العقائد الزائفة، والأقوال المنكرة، والأفعال الخاطئة .

ثالثا: الأدلة من كلام السلف: وذكر في هذا النوع ثلاث كلمات مأثورة عن السلف تدل على صحة تعميم معنى الآية على ما شابهها من حوادث وهي:

1 – ما جاء في " سيرة الحسن البصري " لأبي الفرج ابن الجوزي: أن الحسن قال: " رحم الله رجلًا خلا بكتاب الله، وعرض عليه نفسه، فإن وافقه، حمد ربه وسأله المزيد من فضله، وإن خالفه؛ تاب وأناب ورجع من قريب " [ص:45] .

---

[1] رواه أبو داود في سننه كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهى، رقم: 4338 . وضعفه الشيخ الألباني في كتابه: صحيح وضعيف سنن أبي داود (336/9) .

[2] رواه البخاري في أبواب المساجد، باب: الصلاة في البيعة، رقم: 425 . ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد، رقم: 1212 .

2 - وقال أبو عبد الله الأبلي التلمساني المتوفى منتصف القرن الثامن: " لولا انقطاع الوحي؛ لنزل فينا أكثر مما نزل في بني إسرائيل " لأننا أتينا أكثر مما أتوا ". نقله ابن مريم في " البستان " (218).

3 - وقال الحافظ ابن حجر المتوفى منتصف القرن التاسع في " فتح الباري " بعدما أشار إلى كثرة ما أنذر به النبي ﷺ أمته: " وقد وقع معظم ما أنذر به، وسيقع بقية ذلك " (13/ 256).

فهذه دلائل وشواهد تريك صواب العلماء المجددين في تحذيرهم لإخوانهم المسلمين، وتكشف لك عن غرض المبطلين وخطأ المعارضين"[1].

رابعا: الأدلة من المعقول على تعميم ألفاظ الآية على ما يشبهها من وقائع:

واكتفى الشيخ مبارك الميلي في هذا اليوم بوجه استدلال عقلي واحد ختم به أدلته؛ وهو سؤال منطقي طرحه فقال:" ثم إنك تجد الإسلام خاتمة الأديان، ونبيه خاتم النبيين، وكتابه خاتم الكتب، وهذه الأمة خاتمة الأمم، وهي من جنس تلك الأمم الماضية؛ تقسو قلوبها كما قست قلوبهم، وتفسد عقائدها كما فسدت عقائدهم، وتعصي كما عصوا، وتبتدع كما ابتدعوا؛ فهل من حكمة أحكم الحاكمين ورحمة رب العالمين أن يقصر ما عاب به من قبلنا عليهم، ويدعنا سدى من غير دليلٍ يعرفنا فسادنا وقبيح أعمالنا إذا نزل بنا ما نزل بالأمم قبلنا؟!.

لقد أحاط ربك بكل شيء علماً، ووضع لكل حال حكماً، والقرآن الذي فضح من قبلنا هو الذي يفضحنا، والقرآن الذي هدى من تقدمنا هو الذي يهدينا" [2].

المطلب الثالث: قاعدتان مهمتان تطبق بهما مسألة "تنزيل الآيات على الواقع"

ذكر الشيخ قاعدتين مهمتين استعملهما المفسرون في تنزيل الآيات على الواقع، وهما:

القاعدة الأولى: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، والحديث عنها في عدة نقاط:

1- تعريفها: ومعنى هذه القاعدة هو أنّه إذا وقعت حادثة في زمن النبيّ ﷺ ، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه آية مبيّنة لتلك الواقعة بلفظ من ألفاظ العموم، فمعنى الآية حينئذ يشمل صاحب تلك الحادثة وغيره ممّن شابهه فيها، لأنّ القرآن نزل تشريعا عامّا لجميع الأمّة ولا يختص بالسبب [3].

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 86).

[2] رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 86).

[3] ينظر: مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس بن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م،(338/13)، وشرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي (ت: 972هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الثانية، سنة: 1418هـ- 1997م، (177/3).

2- حالات العام الوارد على سبب خاص: والعموم الوارد على سبب خاص له ثلاث حالات هي:

- الأولى: أن يقترن بما يدل على العموم فيعم اجماعاً كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ المائدة: ٣٨، سبب نزولها المخزومية التي قطع النبي ﷺ يدها والإتيان بلفظ السارق الذكر يدل على التعميم وعلى القول بأنها نزلت في الرجل الذي سرق رداء صفوان بن أمية في المسجد فالإتيان بلفظ السارقة الأنثى دليل على التعميم أيضاً .

- الثانية: أن يقترن بما يدل على التخصيص فيخص اجماعاً كقوله تعالى:﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأحزاب: ٥٠.

- الثالثة: ألا يقترن بدليل التعميم ولا التخصيص وهي مسألة المؤلف. والحق فيها أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيعم حكم آية اللعان النازلة من عويمر العجلاني وهلال. وآية الظهار النازلة في امرأة أوس بن ا لصامت وآية الفدية النازلة في كعب بن عميرة. وآية: ﴿ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ النساء: ٧. النازلة في ابنتي سعد بن الربيعة. وهكذا [1] .

والقاعدة الثانية: هي قاعدة: "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ " .

ومحل هذه القاعدة في الأحكام والفروع التي لم يرد ما ينسخها، وأما الاعتقاد، فالدين فيها واحد لجميع العالم، وهو الإيمان بالله، وتوحيده وتصديق رسله، والإيمان بالدار الآخرة [2] .

المبحث الثاني:
تنزيلات الشيخ مبارك الميلي للآيات من خلال واقع أهل زمانه والحياة اليومية له

وفيه خمسة مطالب هي:

المطلب الأول : منهج الشيخ مبارك الميلي في تنزيل الآيات على الواقع

تنوعت أساليب الشيخ مبارك في تنزيله للآيات على الوقائع التي كانت في زمانه، فسلك طرقا شتى مجملها ما يلي:

1- التمهيد للمسألة المراد الحديث عنها، وذلك بالإطالة في المقدمات التأصيلية

---

[1] مذكرة في أصول الفقه، محمد الأمين الشنقيطي(ت 1393ه)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط: 5، عام: 2001 م، (ص: 251) .

[2] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط: 1، سنة: 1416 ه، (234/1)، التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 م، (206/6- 209) .

للمسألة من حيث التعريف اللغوي والاصطلاحي، وذكر بعض المسائل المشابهة لها وغير ذلك، ثم يختم الحديث عن المسألة بربط الآية بالواقع وبيان علاجها، وتقديم النصائح والنهي عن المخالفات .

2- استشهاد الشيخ أثناء تنزيلاته بوقائع شخصية وقعت له في حياته اليومية وأسفاره ومخالطته للناس، ليبين أن القضية واقع يعيشه الناس فيحتاج إلى علاج من القرآن الكريم وليس مجرد أوهام نظرية يذكرها الشيخ لا وجود لها في الواقع ، ومثالها قوله "فقد حدثني بقرية أبي سعادة من حضر مجلساً فيه كاهن سكير ممن يعرفون في العرف بالمرابطين، فطلب رجل من مرابطه ذلك ولداً ذكراً، فأعطاه إياه، وعيَّن له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له: إن وضع بها، فهو مني، وإن خلا منها؛ فهو من الله!!

ولهذه الطامة أشباه ونظائر يعرفها من اختلط بالعامة وسمع أخبارهم مع أوليائهم" [1].

3- التنزيل المباشر من الشيخ وبعنوان واضح، وهذا غالب تنزيلاته أما التلميح فكان عنده قليلا وذلك لطبيعة التنزيلات عنده، فهي متعلقة بقضايا العقيدة فكان الأنسب لها التنزيل المباشر.

4- أغلب تنزيلات الشيخ جاءت عكسية، بذكر المعنى المراد من الآية ثم بيان مخالفة الناس لمضمونها .

5- تنويع الشيخ لصيغ التنزيل بعبارات مختلفة: ومنها:

- "أما ... عند الناس اليوم" .
- "مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام" .
- "وصفة ... اليوم عندنا" .
- "ولقد فشا في المسلمين اليوم" .

6- ختام الشيخ للتنزيل بنصيحة أو إنذار وتحذير، ليجمع في ذلك بين الترغيب للاتباع والترهيب من المخالفة والترك [2].

المطلب الثاني: المسألة الأولى: التصرف في الكون

من المسائل المهمة التي اعتنى بها الشيخ مبارك الميلي في كتابه "الشرك ومظاهره" مسألة "التصرف في الكون"، حيث شاع في زمنه انتشار بعض العقائد الباطلة وبعض الخرافات من أن بعض البشر لهم تصرف في الكون، فانبرى الشيخ للمسألة وعالجها علاجا دقيقا، فقرّر أن التصرف في الكون إنما هو خاص بالله سبحانه، وأن نسبة الفعل للمخلوق لا تخلو من

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 194) .

[2] تنزيل الآيات على الواقع عند مبارك الميلي، مريم زيناي، مذكرة ماستر، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، ص (60-61) .

ثلاث حالات:

إحداها: أن تكون النسبة على معنى التأثير في الفعل من دون الله .

ثانيتها: أن تكون على معنى التأثير بجعل الله وتفويضه .

ثالثتها: أن تكون على معنى الإخبار عن عادة أجراها الله من غير تأثير ذاتي أو جعلي .

ثم استدل لذلك بآيات من القرآن الكريم فقال :" أَنبَأت عنه آيات آل عمران والأنعام والأعراف والقصص والمنافقون ... وكثير في معناها: قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ آل عمران: ١٢٨، ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ الأنعام: ٥٠ ، ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ الأعراف: ١٨٨، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ القصص: ٥، ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ المنافقون: ٧" [1] .

وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن التصرف في الكون من حقوق الربوبية ، فالله تعالى يتصرف كما يشاء في كواكبه وأجرامه، و أن الله تعالى يُسيّر الشمس من المشرق على المغرب وأنه الفاعل المختار لما يشاء[2] .

ثم نزل الآية على العقيدة المنتشرة عند العامة من أهل زمانه الذين وقع كثر منهم في الشرك بسبب هذه المسألة، وأنهم كانوا على قسمين:

- فمنهم من يعتقد نسبة الأفعال إلى الأولياء وتصرفهم في الكون على معنى التأثير بجعل الله وتفويضه، فهؤلاء الأولياء أعزاء على الله، ففوض إليهم التصرف فما قضوه للناس، وافقهم الله عليه، بدليل قول بعضهم: " إنا نكذب والله يصدق " .

- وهناك طائفة أخرى منهم تعتقد أن الولي يفعل ما يفعل بقوته لا بقوة الله، وبعض من يدعي الولاية يدعي ذلك لنفسه ويقر العامة عليه .

وهذا كله تنزيل من الشيخ على واقعه المعيش ليجد حلاً وينقذ إخوانه المؤمنين ممّا هم غارقون فيه من العقائد التي تخرجهم عن ملّة محمد ﷺ .

ثم ختم الشيخ تنزيله لآيات خصوصية التصرف في الكون لله بحادثتين وقعتا للشيخ في زمانه إحداهما حكاية حكاها له أحد أصدقائه، والأخرى حادثة وقعت للشيخ نفسه، فقال: "حكايتان عن العامة:

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 193) .

[2] تفسير ابن كثير، (487/5)، والموسوعة العقدية - الدرر السنية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net، (132/1) .

الأولى: فقد حدثني بقرية أبي سعادة من حضر مجلساً فيه كاهن سكّير ممن يعرفون في العرف بالمرابطين، فطلب رجل من مرابطه ذلك ولداً ذكراً، فأعطاه إياه، وعيَّن له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له: إن وضع بها، فهو مني، وإن خلا منها؛ فهو من الله !!

ولهذه الطامة أشباه ونظائر يعرفها من اختلط بالعامة وسمع أخبارهم مع أوليائهم .

الثانية: وقد كنت سنة أربع وأربعين مع فقيه ميلي بمقهى في قسنطينة، فقص علينا رجل مصيبة أيس من السلامة منها، ثم حصل له الفرج، فعبّر عن خطورتها قائلًا: لوما الناس الصالحين ... فقال له صاحبي مرشداً أو منكّتاً: وربي؟ فأجابه: ربي والناس الصالحين. فقال له: وربي وحده . فلم يجاره، وقال له: هكذا سمعنا الناس يقولون. ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ آل عمران: ٨"[1] .

المطلب الثالث: المسألة الثانية: علم الغيب

وهذه من القضايا المهمة التي أطال الشيخ مبارك الميلي النفس فيها، وردّ على من أخطأ فيها مثل الرازي خصص نوعا من الغيب يعلمه الناس وهو تخصيص لا دليل عليه[2]، وقرّر في هذه المسألة انفراد الله تعالى بمعرفة الغيب، واستدلّ على ذلك بالآيات الدالة على اختصاصه سبحانه بعلم الغيب فقال:" **ما جاء في اختصاص الله بعلم الغيب:** وقد جاءت آيات وأحاديث في إفراد الله وحده بعلم الغيب، وهي كثيرة، تقدم بعضها:

ونقتصر هنا من الآيات على ما في الأنعام والنمل والجن:

قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام: ٥٩، ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ النمل: ٦٥، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ الجن: ٢٦ - ٢٧" [3] .

وهذه الآيات تدلّ بمجموعها على أن الله تعالى هو المختص بعلم الغيب فلا يعْلَمُ أحدٌ الغيب، بل الله - عز وجل - هو الواحد الأحد وهو العالم بغيب السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن، فمن ادّعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرهما، أو صدق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكا فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله[4] .

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 195) .

[2] ينظر كلام الرازي، مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 3، سنة: 1420 هـ، (273/2) .

[3] رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 198) .

[4] القول السديد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية، الطبعة: الثانية، 1421هـ، (ص: 100).

وبعد التقرير السابق للمسألة أتبع الشيخ مبارك كعادته الكلام على ما شاع عند أهل زمانه عند العوام من اعتقادات باطلة في هذه القضية فقال:" نسبة العامة علم الغيب لبعض الناس:

والعوام ينسبون علم الغيب المطلق إلى من اتخذوهم أولياء، سواء سماهم الشرع أولياء أو كهاناً أو سحرة أو مردة أو مجانين، فيخشون في غيبتهم أن يطلعوا على ما لا يرضونه منهم، ويشدّون إليهم الرحال استعلاماً عن سرقة، أو استفتاء عن عاقبة حركة .

وبوادي القطن قرب ميلة شرقيها كاهن اسمه سيدي مبارك، يأتيه المستطلعون للغيب من مئات الأميال كسوق هراص وأراضي الحراكتة، ومات، فقام ابنه مقامه، ولم يزل حيّاً- أو: حية- على الجهال، ومثله كثيرون، وإن اختلفت شهرتهم ضيقاً واتساعاً" [1] .

ثم ختم الشيخ الكلام على المسألة بحكايتين شائعتين في بلدته ميلة ليبيّن أن ما تحدّث عنه واقع معيش لا مجرد ادّعاءات منه فقال:" حكايتان عن العامة:

وحدثني ميليّان لم يزالا حيّين:

قال أحدهما: كنت عند باش تارزي شيخ الطريقة الرحمانية بقسنطينة أعلّم القرآن، وكنت فتى تدعوني نفسي إلى غشيان النساء، فلم يكن يمنعني إلا خشية الشيخ أن يطلع عليّ من طريق الغيب .

وقال الآخر: كنت ذا[(*)] سوق في تاجنانت من أرض أولاد عبد النور، وبقربي اثنان يتنازعان، فحلف أحدهما للآخر بسيده عبد الرحمن بن الحملاوي- شيخ من شيوخ الطريقة الرحمانية- قرب سقان، فتغير وجه المحلوف له، وأنكر على الحالف قائلًا: أليس الشيخ عالماً بما يجري الآن بيننا؟ قال محدثي: ظننته لأول سماع إنكاره أنه ينهاه عن الحلف بالمخلوق؛ فإذا هو يكبره عن الحلف به، ويشركه مع الله في غيبه!!

والحكايات في مثل هذه الضلالات مما لا تسعه المجلدات؛ فإن نسبة الغيب المطلق إلى الأولياء ممّا شاع وذاع، وملأ الحزن والقاع، وهو شرك بإجماع، وإنما حسّنه الجهل، والقعود عن العلم حتى فقد طلابه، وتنوعت عقباته وصعابه، ولم يبق من أهله إلاّ من يدعي فقه الفروع على قلة وجمود" [2] .

المطلب الرابع: المسألة الثالثة: قضية السحر

من القضايا المهمة التي بسط فيها القول الشيخ مبارك الميلي وذكر فيها مباحث كثيرة، قضية السحر الذي شاع في زمانه ووردت النصوص الشرعية بالزجر عنه أيّما زجر، ذلك أنه

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 210) .

[2] المرجع نفسه، (ص: 210- 211) .

مظهر من مظاهر الإشراك بالله تعالى، ولذلك أدخله الشيخ في كتابه "الشرك ومظاهره".

وقد عرّف الشيخ مبارك السحر لغة واصطلاحا، وذكر أنواعه الثمانية (سحر البابليين، سحر أصحاب الأحوال، سحر أصحاب العزائم، سحر أصحاب الشعوذة، سحر أصحاب التخييل بالصنعة، سحر أصحاب التخييل بالخواص، سحر أصحاب التنويم، سحر النمام) ثم ذكر ما يقع بها السحر وما لا يقع.

وبعدها وصل إلى المقصود من بحثنا وهو الاستدلال على حرمة السحر بآي القرآن الكريم، فعنون لذلك بعنوان مناسب وذكر ثلاث آيات قرآنية فقال :" ما جاء في السحر: وهذا بعض ما جاء في السحر:

1 - قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ البقرة: ١٠٢.

2 - وقال حكاية عن موسى وخطابه للسحرة: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ يونس: ٨١.

3 - وقال جل شأنه: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ طه: ٦٩ [1].

وانطلاقا من مدلول هذه الآيات اختلف العلماء في كفر الساحر من عدمه ونوع عقوبته، وقد لخص الإمام النووي المسألة فقال:" ... وقد سبق في كتاب الإيمان أن رسول الله ﷺ عدّه من السبع الموبقات وسبق هناك شرحه؛ ومختصر ذلك أنه: قد يكون كفرا وقد لا يكون كفرا بل معصيته كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر وإلا فلا، وأمّا تعلمه وتعليمه: فحرام، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزّر واستتيب منه ولا يقتل عندنا، فإن تاب قبلت توبته، وقال مالك : الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتّم قتله"[2].

وبعدما ذكر الشيخ المسائل السابقة المتعلقة بالسحر والآيات الواردة فيه، نزّل معاني ومضمون تلك الآيات على من تأثّر بالسحر أو عمل به من أهل زمانه وبين بطلان عملهم وخطر ما يقومون به فقال:" ولوع بعض الطبقات به:

أَبَعْدَ هذا التنبيه وذلك التحذير يتسابق أصحاب هذا الكتاب وأتباع ذلك الرسول إلى ضروب السحر، ويتنافسون في إتقانها، ويفخر فاخرهم بالمهارة فيها؟!

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 88).

[2] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ، (176/14).

تجد بعض المنتسبين إلى بيوت الصلاح أو دور الطرق الصوفية- وما أكثرهم! - يدجلون على بله العوام بمخاريق سحرية، يوهمونهم بها أنهم ذوو كرامات أولوا تصرف في الرَّوحانيات، وترى بعض من تعلّموا القراءة والكتابة يكبون على شمس المعارف للبوني، يأخذون منها أقوالاً وأعمالًا مبنيّة على علم الحروف المنظور فيه إلى طبائع الكواكب المزعوم أنها الحاكمة في هذا العالم، فيعتقدون اعتقاد الكلدان، ويلبسون لباس أهل القرآن، كلّ ذلك ليُنعَتوا بالحكمة، ويشار إليهم بتطويع ملوك الجان" [1].

ثم خصّص الحديث عن النساء لأنهنّ أكثر من يتعاطى السحر ويسعى فيه لأغراض مختلفة فقال: ولوع النساء بالسحر:

أما النساء؛ فلا تسأل ... هذه تربط الزوج عن زوجه أو تحلّه، وتلك تبلّد الرجل حتى تروّج عليه زوجه كلّ شيء، وماهرة تنزل القمر في القصعة كأن القمر خبزة، ولا تجد في الأغلب من تتزوج إلا وهي متزوّده من العجائز بوصايا سحريّة ورُقًى وأدوية (وفيهن- لا نكذب- نساء صوالح)، ولو عنيت أمتنا بالعلم عنايتها بالسحر، لم تنحرف في حياتها عن سُلّم الرّقي، ولكنها حادت عن سنة التقدم، وأحاطت بها خطاياها، فحاق بها سوء عملها، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فصلت: ٤٦ [2].

وممّا يدل على ولوع النساء بالسحر وتأثرهن به أكثر من الرجال القصة التي رواها الطبري في تفسيره لآيات السحر في سورة البقرة، وهي قصة عائشة مع العجوز التي جاءتها بعد وفاة النبي ﷺ تشكوا إليها ما فعلته بها ساحرة [3].

وكعادة الشيخ ختم تنزيله بحكاية عن رجل من أهل زمانه يدعى العبيدي فقال فيه: "العبيدي الميلي:

وقد أدركت بميلة جيلاً كله إعجاب برجل يدعونه: العبيدي، وينقلون في مجالسهم أحاديث تصرفه في الجن (*)؛ فهذا يقول: أخرجه من فلانة وسجنه في زجاجة!! وذاك يحدثك عن إحراقه وتصاعد دخانه!! وآخر يروي لك توبيخه لهم وتهديده إياهم!! فهذا الحكيم العبيدي بميلة يكاد يحظى حظوة ذلك الحاكم العبيدي بمصر، وقد قرأت القرآن على من ورث العبيدي الميلي في صنعته، وإن كان دون شهرته، وكنت أتمنى لو يطلعني شيخي على هذا السر، فحفظني الله من ذلك الشر" [4].

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 238).

[2] رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 238-239).

[3] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: 1،سنة: 1420 هـ/2000 م، (440/2).

[4] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 238).

المطلب الخامس: المسألة الرابعة: شرك الدعاء

يعتبر الدعاء من أهم مظاهر العبادة التي أمر الله تعالى بإفراده بها في كتابه الكريم أو على لسان رسوله الكريم، ولذلك أفرده الشيخ مبارك الميلي بحديث طويل ذكر فيه مسائل كثيرة جدا، فذكر معناه وأنواعه، ثم أفرد الحديث بدعاء غير الله وحكمه ومفاسده، ثم ذكر الآيات التي جاءت في باب الدعاء في القرآن على طريقة التفسير الموضوعي، فذكر أربعة فروع لموضوع الدعاء في القرآن الكريم وهي :

أولا: ما جاء في توجيه الداعي إلى الله: وذكر فيه ثلاث آيات هي:

1 - فمن الآيات في الجهة الأولى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة: ١٨٦، ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف: ١٨، ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ فاطر: ١٣.

2 - ومنها في الجهة الثانية: ﴿ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ يونس: ١٠٦ - ١٠٧ ، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النحل: ٢٠ - ٢١، ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ الإسراء: ٥٦ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج: ٧٣ - ٧٤.

ثالثا: ما جاء في تذكير السائلين بالتوحيد: وذكر فيه أربع آيات هي:

3 - ومنها في الجهة الثالثة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ٤٠ - ٤١ ، ﴿ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يونس: ٢٢.﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الإسراء: ٦٧ ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

رابعا: ما جاء في تعادي السائلين والمسؤولين: وذكر فيه ثلاث آيات هي:

4 - ومنها في الجهة الرابعة: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ البقرة: ١٦٦، ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٥، ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف: ٦٧" [1] .

وهذه الآيات كلّها فيها دلالة على وجوب صرف الدعاء لله وحده وأنّه لا يمكن أن يكون الإنسان موحداً إلاّ إذا أفرد الله تعالى بالدعاء، ومع ذلك فقد وقع كثير من الناس في الشرك بسبب الدعاء؛ قال الآلوسي:" الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم، مثل يا سيدي فلان أغثني، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك وأن لا يحوم حول حماه، وقد عدّه أناس من العلماء شركا [2] .

وبعد هذا العرض لآيات القرآن الكريم في باب الدعاء نزل الشيخ الآية على الواقع الذي كان يعيشه أهل زمانه وما شاع فيه من الشرك في الدعاء فقال:" فشو دعاء غير الله:

ولقد فشا في المسلمين دعاء غير الله على شدّة إنكار كتابهم له وتحذير نبيهم منه، حتى صار الجهلة ومن قرب منهم يؤثرونه على دعاء الله وحده، والاستشهاد لذلك بالحكايات عنهم واستيعابها مملّ معجز؛ فلنقتصر على حكاية واحدة" [3] .

ثم ختم الشيخ حديثه كعادته بذكر حادثة وقعت له في إحدى زياراته فقال:" الحكاية العاشورية:

ففي سنة سبع وأربعين قتل شيخنا محمد الميلي رحمه الله، فأتيت من الأغواط، وجاء للتعزية الشيخ عاشور صاحب " منار الأشراف " وملقب نفسه: كليب الهامل، والهامل قرية بالحضنة قرب أبي سعادة، بها زاوية كانت تمدّه بالمال، فحضرت مجلسه، ولم أشعره بحضوري؛ إذ كان قد اجتمع عليه العمى والصمم، وذلك لئلا يحترز في حديثه أو نقع في حديث غير مناسب للمقام .

سمعت في ذلك المجلس بأذني كليب الهامل يحكي مناقضاً لدعوة الإصلاح التي اشتهرت

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 282-284) .

[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ت: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415هـ، (298/3) .

[3] رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 285) .

يومئذ: أن شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية كان مع مريديه في سفينة، فهاج بهم البحر، وعلت أمواجه، فلجؤوا جميعاً إلى الله يسألون الفرج والسلامة، وكان الشيخ منفرداً في غرفة يدعو، فلم تنفرج الأزمة، وعادته أن لا يبطأ عليه بالإجابة، فوقع في روعه أنه أتي من قبل أتباعه، لا لنقص فيه يوجب هذا الإعراض عنه، فخرج على أتباعه مغضباً، يقول: ماذا صنعتم في هذه الشدة؟ فقالوا: دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين (إشارة لقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ النمل: ٦٢ ، فنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة، ووبّخهم عليه، وعرفّهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمرارهم على التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق، وعلمهم أن واجبهم هو التوجه إليه وسؤاله، ثم هو وحده يتوجّه إلى الله، فتابوا من دعاء الموحّدين، وامتثلوا تعليم الشيخ المخالف لتعليم رب العالمين، وعاد الشيخ إلى غرفته يدعو متوسطاً بين الله ومريديه، فانكشفت الغمة، وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه وفقهه سرّ البطء عن استجابة دعائه تفقيهه لأتباعه سرّ النجاة وصرفهم إلى الثقة به عن الثقة بالله .

هذا معنى ما سمعته من كليب الهامل، ولم أقيد الحكاية حين السماع حتى أؤديها بلفظها وأصورها بنصها، ولم يسعني وأنا في مقام التحذير من الشرك اجتناب إدراج ما ينافي غرض الحاكي في الحكاية حتى تتم ثم أعلق عليها؛ لئلا يعلق بذهن القارئ شيء من الشرك، ولو إلى حين، ولم أميز المدرج في الحكاية؛ لأنه لا يخفى على العارف بحال المعارضين لدعاة الإصلاح الديني" .

يستدل الشيخ عاشور وأشباهه بأمثال هذه الحكاية على لزوم التعلق بشيوخ الزوايا وتوسيطهم بين العباد وربهم ناسخين بها نصوص الشريعة الكثيرة المحكمة، وتتلقفها منهم العامة بقلوبها، وتتمسك بها في الاحتجاج لإيثار دعاء غير الله، وتعتقد أن ذلك أليق بحالها من أن تخاطب بنفسها أرحم الراحمين؛ سنة المشركين من قديم كما تقدم عن الكلدانيين"[1].

خاتمة

بعد هذه الرحلة العلمية مع قضية تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي، نخلص إلى النتائج الآتية:

- اعتناء الشيخ مبارك الميلي بمسألة تنزيل الآيات الواقع كان ظاهرا في كتابه "الشرك ومظاهره" .

- تميّز الشيخ مبارك عن غيره من علماء الجمعية بالجمع بين التنظير والتطبيق لمسألة التنزيل، بينما اعتنى غيره بالجانب التطبيقي مثل ابن باديس .

[1] رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 286-287) .

- تنوعت أساليب الشيخ في تنزيله للآيات على الواقع بالتصريح وحكاية الوقائع واستعمال الألفاظ العامية .

- من أهم المسائل التي اعتنى بها الشيخ وذكر فيها أحداثا واقعية: مسألة: التصرف في الكون، و مسألة علم الغيب، و مسألة السحر، و مسألة الدعاء .

وفي الأخير فإنني **أوصي** الباحثين بالاعتناء بالتراث التفسيري الجزائري في غير كتب التفسير، ففيها مادة علمية غزيرة وتقييد لحوادث تاريخية وعلاج أمراض اجتماعية في ظلّ كلام الله تعالى .

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل،ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط: 1 ، سنة: 1416 هـ
- أسباب النزول، أبو الحسن النيسابوري (ت: 468هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م .
- الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي و محمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 1425 هـ .
- الأم، محمد بن إدريس الشافعي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: بدون طبعة، سنة النشر: 1410هـ/1990م .
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م .
- تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، ت: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2، سنة: 1420هـ - 1999 م .
- تنزيل الآيات على الواقع عند مبارك الميلي، مريم زيناي، مذكرة ماستر، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللّويحق، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420هـ/2000 م .
- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: 1،سنة: 1420 هـ/2000 م .
- الجامع الصحيح سنن الترمذي، تأليف: محمد بن عيسى الترمذي، ت : أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي ، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، سنة: 1422هـ - 2001م،
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ت:

علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ .
- سنن أبي داود، دار الكتاب العربي . بيروت .
- شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي (ت: 972هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الثانية، سنة: 1418هـ - 1997 م .
- شرح مختصر الروضة، نجم الدين الطوفي، (المتوفى : 1316هـ)، المحقق : عبد المحسن التركي، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ، 1407 هـ/1987 م
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت،ط: 3، 1407/ 1987، ت: د مصطفى ديب البغا .
- القول السديد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1421هـ .
- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس بن تيمية ، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م .
- مذكرة في أصول الفقه، محمد الأمين الشنقيطي(ت 1393هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط: 5، عام: 2001 م .
- معالم التنزيل في تفسير القرآن ، المؤلف : أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ .
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 3، سنة: 1420 هـ .
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية ، 1392هـ .
- الموسوعة العقدية - الدرر السنية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net .
- نهاية السول شرح منهاج الوصول، عبد الرحيم الإسنوي، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1420هـ- 1999م .